التسامح الروحي في الثقافة الجزائرية
(مقاربةُ فهم)[1]

د. احميده عميراوي

نائب مدير جامعة الأمير
عبد القادر

مُقدّمة:

الهدف من تناول هذا الموضوع هو عرض جانب هام من الثقافة الجزائرية ونعني بـه الحيـاة الروحية الصوفية وعلاقتها بموضوع التسامح. ومـن ثـمّ يكـون هـذا العـرض مقاربـة للفـهم ولهـذا الجانب الذي لا يزال إحدى الظواهر السائدة اليـوم في الحيـاة الاجتماعيـة الجزائريـة. ونـرى أن يكون هذا العرض من خلال النقاط الآتية:

1 – عن مفهوم التسامح

2 – موجز تاريخي

3 – من مصادر الثقافة الجزائرية

4 – أثر المذهبية الدينية في الثقافة الجزائرية

5 – مكانة الحياة الروحية الصوفية في الثقافة الجزائرية

6 – موقع كل من الأمير عبد القادر وابن باديس في الحياة الروحية بالجزائر

1 - عن مفهوم التسامح

للتسامح أكثر من مدلول و أكثر من مفهوم فيكون التسامح دينيا أو طائفياً عرقياً أو شخصياً فرديا أو تسامحا أبوياً عائلياً. على هذا الأساس يكون التسامح أخلاقيا أكثر مما يكون سياسيا أو اقتصاديا. وقد يكون التسامح قناعة أو عرفا أو تطبيقا لقانون أو لمصلحة. والتسامح لا يعني الاستسلام وقبول الآخر الدخيل. وفي تقديرنا إن المناسب في موضوع التسامح والتعامل معه يكون انطلاقا من موضوع المثاقفة (acculturation) الذي من أسسه أن تتعايش الثقافات في سلام، كلّ في فضاء معين من دون مصادرة بعضها للأخرى. والسؤال الذي يمكن طرحه هو إلى أي مدى تكون الثقافة الجزائرية في بعدها الروحي متسامحة مع الثقافات الأخرى؟

2 - موجز تاريخي

من المعروف أن الجزائر من أشهر البلدان التي استوطنتها أجناس مختلفة. وعاشت وتعايشت فيها ثقافات متعددة كالإغريقية ذات البعد الفلسفي. والفنيقية ذات النشاط التجاري والعمراني. والرومانية ذات المنشآت العمرانية والحربية. والعربية ذات الإسهام الديني الإسلامي. والتركية ذات الإنجازات السياسية -العسكرية البحرية. والأوروبية ذات "المدنية" العلمية والقوانين الوضعية؛ كلّ هذا ولّد في الجزائر مخزونا ثقافيا متميزا. كانت جوانب منه متكاملة وجوانب أخرى ظلت متقاطعة ومتصارعة ومتنافرة. وقد تحكمت في هذا المخزون الثقافي عدة فواعل تمثلت في أكثر من خطاب؛ يمكن حصره في الخطاب السياسي الذي عرفته الجزائر من خلال أنظمة حكم سادت ثم بادت. وفي الخطاب الديني المذهبي الفقهي سواء السني أم الشيعي أم الخوارجي. و يمكن حصره أيضا في الخطاب الروحي الصوفي الذي هو موضوع عرضنا المتسم بالتسامح والحوار. وعلى هذا الأساس يمكن طرح هذا السؤال: ما هي أهم مصادر الثقافة الجزائرية؟

3 – من مصادر الثقافة الجزائرية

يمكن حصر مصادر الثقافة الجزائرية في أمرين، الأول تاريخي. والثاني مرجعي تأليفي. فالتاريخي يُعرفُ من خلال الموجات الثقافية التي تعاقبت على الجزائر؛ التي على أساسها يمكن القول أن المجتمع الجزائري مشدود من الناحية الفكرية والاجتماعية إلى اعتبارات ستة هي:

1 – العرقية التي سبق وأن كانت من القبائل والأعراش والأسر الجزائرية العريقة ومن الجاليات الأجنبية كاليهودية والمسيحية والزنجية الإفريقية التي وجدت الخصب والمقام الطيب في الجزائر نتيجة لما كان عليه الجزائريون من تسامح وتقبل للآخر بالحوار الهادئ. والعطاء المتبادل.

2 – المذهبية الفقهية خاصة السنية والإباضية

3 – الروحية الصوفية التي ساهمت في إرساء التراث الروحي الجزائري، وإشراكه مع التراث الإنساني .

4 – الفلسفية التي عرفتها الجزائر منذ عهد سانت أوغستين الذي أسهم بفكر فلسفي – ديني. وعهد ابن رشد في عصر دولة الموحدين. وكذلك القاضي أبي بكر بن العربي ومحي الدين بن عربي وغيرهم، وصولا إلى مالك بن نبي في عصرنا الحالي رحمهم الله جميعا.

5– الأسطورة أي ما تعلق بالثقافة الجزائرية من معتقدات ليست دينية.

6 – وأخيرا الأفكار الحديثة المتأثرة بالعلوم الوضعية.

والأمر الثاني لمصدر الثقافة الجزائرية يتمثل في المساجد و المدارس والزوايا المنتشرة في كل أنحاء الوطن. وكذلك في ما تركه العلماء من آثار خاصة من وفود العلماء الذين زاروا الجزائر. ومن أبناء الجزائر طلاب العلم 5ثالذين كانوا يقومون برحلات إلى البلاد الإسلامية وعادوا إليها بكنوز

معرفية؛ معنوية ومادية. ونذكر من أهم الكتب التي كانت مرجع الثقافة الجزائرية وحظيت بإقبال الجزائريين على اقتنائها هي:

- في علوم القرآن الكريم مثل الكشف والبيان لأبي إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي. وكتابُ أحكام القرآن لأبي الحسن علي بن محمد الطبري. وكتاب الوجيز في شرح كتاب الله العزيز لأبي محمد بن عبد الحق بن عطية الأندلسي. وتفسير محمد بن هودا الهواري وهو أول تفسير في العالم الإسلامي ومؤلفه هذا هو جزائري أباضي.

- في العقيدة كتب المقدمات والصغرى والوسطى والكبرى للإمام السنوسي.

- في الحديث الشريف مثل كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس. وكتاب الجامع الصحيح للإمام مسلم . وكتاب سنن أبي داوود. وكتاب جامع الترمذي.

- في الفقه مثل كتاب المدونة والمختلطة لعبد السلام بن سعيد سحنون. وكتب أخرى للقاضي عياض بن موسى وللطرطوشي ومختصر خليل والميارة الصغرى والكبرى.

- في اللغة مثل كتاب سيبويه والعقد الفريد والأجرومية التي ألفها جزائري.

- في التصوف مثل رسالة فضل مكة لأبي الحسن البصري. وقوت القلوب ومعرفة الطريق إلى معاملة المحبوب لأبي طالب محمد بن علي المكي. ورسالة القشيري. وغيرها من أمهات الكتب[1]. وكتاب الإحياء للإمام الغزالي. وكتب التوبة والقواعد والإعانة لزروق.

4 - أثر المذهبية الدينية في الثقافة الجزائرية

ونقصد بالمذهبية الدينية ما ساد في الجزائر من شرائع سماوية هي يهودية ومسيحية وإسلام. وسنركز على المذهبية الفقهية الإسلامية. فهذه الأخيرة كان لها أثر فاعل ومستمر في تشكيل الثقافة الجزائرية، ونخصّ من هذه المذهبية الصراع الذي استمر بين كل من السنيين

والشيعيين والخوارج. ولسنا بحاجة إلى الحديث مطولا عن المذهبية في الجزائر بقدر ما نحن بحاجة إلى الحديث عن أثرها في تشكيل الثقافة الجزائرية.

يجوز لنا من الناحية التاريخية القول: إن المدرسة السنية في شمال إفريقيا مرت بمرحلتين، الأولى تمثلت في التشبث بمنهج السلف والدعوة للإسلام وكانت على يد الفاتحين والفقهاء الوافدين من المشرق[2]. وعلى يد طلاب العلم "المغاربة" الرحالة إلى المشرق والعائدين إلى بلادهم. والمرحلة الثانية تميزت بظهور المتكلمين المغاربة. وخلال المرحلتين كان الحوار والتسامح كبيرين بين الفاتحين والدعاة والفقهاء المتكلمين كطرف وبينهم وبين المجتمع المغاربي كطرف ثان. وكانت رحاب اللقاء والالتقاء المسجد، الذي به ومنه انتشرت العروبة لغةً وثقافة مثلما انتشر الإسلام دينا وثقافةً أيضا. فاصطبغت الثقافة المحلية بالعروبة والإسلام معا بشكل متواز ومتطابق؛ على خلاف ما حدث في المشرق من نفور بعض السكان العرب من المسلمين. وهذا ما يفسر في رأينا غياب بعض الاتجاهات الفكرية والأيديولوجية في بلاد المغرب بينما ظهرت في المشرق مثل نزعة العروبة التي اعتمدت الجنس واللغة كأساس. وأخرى اعتمدت الدين الإسلامي كأساس. وهو ما يفسر برأينا أيضا عدم الظهور المبكر والموازي لبعض المفاهيم كالحداثة والمعاصرة وغيرها في الثقافة الجزائرية؛ ويفسر كذلك عدم ظهور الطائفية الدينية والطائفية العرقية كممارسة حادة في الجزائر. ومن ثمّ تجنب المجتمع الجزائري نفس الصراعات الدموية التي عاشتها بعض الأطراف في المشرق.

وكان السائد أكثر من الفكر السني في بلاد الجزائر هو المذهب الأشعري (أبو الحسن الأشعري ت 330 هـ/ 945 م) وهو مذهب وسطي بين غلو المعتزلة في اعتماد العقل وبين المكتفين بالنص من علماء أصول الدين وعلم التوحيد أو الفقه الأكبر (الالتزام بالنقل)[3]. وبفعل انتشار المذهب الأشعري في البلاد الإسلامية مغربا ومشرقا صارت الثقافة الجزائرية في جانبها الغالب ثقافة فقهية سنية.

واهتم علماء الفكر السني برواية الحديث والتدوين واستنباط الأحكام، وباعتمادهم على هذا يمكن اعتبارهم الأقرب إلى الحوار وإلى التسامح خلاف فرق الشيعة التي انتشرت على يد عبد الله الداعي في شمال إفريقيا ومنها الإسماعيلية على يد جعفر الصادق بداية من عام 128 هـ / 745م. والخوارج على يد سلمة بن سعد[4]. والمعتزلة على يد واصل بن عطاء 131 هـ /748م الذين اهتموا بإثارة القضايا العقلية وفتح باب الجدل الواسع. لهذا كانت الثقافة الجزائرية في جانبها المشدود إلى الفكر السني أكثر تسامحا وحوارا ومجادلة بالتي هي أحسن مع الثقافات الأخرى. وهو الأمر الذي يفسر قلة الصراعات المذهبية والسياسية في الجزائر قياسا بما حدث في بعض البلدان بالشرق والمشرق.

والثقافة الجزائرية مشدودة أيضا إلى شريحة مذهبية إسلامية هي مذهب الأباضية من الخوارج. إذ يذهب كثير من الدارسين إلى "أن سمات الخوارج البارزة هي التشدد في الدين وعدم التسامح، والانقطاع للعبادة حتى عرفوا بوجوههم الصفراء، وجباههم المعفرة من كثرة السجود"[5].

وتاريخيا يتأكد أن الخوارج تعصبوا للدين وبالغوا فيه إلى درجة أنهم لم يتسامحوا مع السنيين ولا مع الشيعة ولم يتسامح هؤلاء معهم أيضا. الأمر الذي أدى إلى أن ينكل كل طرف بالآخر، حيث رأى الخوارج أن بداية التنكيل كانت على يد على بن أبي طالب وعلى يد الحجاج بن يوسف الثقفي المتوفى عام 78 هـ 697م وعلى يد غيرهم فيما بعد. ومنذ هذا التاريخ احتفظ الإباضيون في الجزائر بمقومات ثقافية متميزة مثلها تميزوا بقلة الثورات ضد الآخرين.

بناء على هذا يكون من الصعوبة بمكان الحديث عن التسامح والحوار في علاقات هذه المذاهب فيما بينها؛ بينما يمكن الحديث عن أللاتسامح فيما بينها. ومن هنا فالحديث عن التسامح والحوار يجرنا بالضرورة للحديث عن اللاتسامع والمصادرة. ونلمس هذا في الشواهد التاريخية المثلة في الحروب السياسية التي وقعت بين كثير من الأطراف. وبالتنكيل في حق كثير من العلماء. وفيما لحق التراث من تلف؛ ولعل ما يناسب هذا المقام ما ذهب إليه عبد المجيد بن

حمدة بالقول: "وأسباب ضياعها (مؤلفات العلماء) عديدة، لعلّ أهمها سيطرة الشيعة الإسماعيلية... على كل مؤسسات البلاد، وقد عذبوا علماء السنة ونكّلوا بهم، وأتلفوا تراثهم"[6].

والواقع التاريخي يشهد كذلك أن التنكيل لم يكن من الشيعة فقط وإنما كان من المعتزلة أيضا ضد السنيين لا سيما حين ناصر المأمون رأي المعتزلة الذين قالوا بخلق القرآن الكريم ونتج عن ذلك أن تعرض أحمد بن حنبل إلى امتحان عسير. والتنكيل كان من السنيين كذلك وفي مقدمتهم الإمام الشافعي حين كفر كل من يقول بخلق القرآن.

والدارس لفكر هذه المذاهب يتأكد له أن حظ التسامح والحوار يقل عند كل منها تجاه الآخر؛ باعتبار أن الفكر العقدي أو السياسي عند الشيعة يقوم على توقيف الإمامة أساسا بينما هو عند الخوارج يقوم على الإمامة غير المشروطة في البيت العلوي أو القرشي. وعند السنيين يقوم على وجوب الخلافة.

وبقدر ما كانت هذه المذاهب متصارعة فيما بينها بقدر ما كانت متسامحة ومتحاورة مع السكان المحليين لأسباب قد تكون سياسية أكثر مما هي عقدية؛ وهذا موضوع آخر يمكن بحثه في مناسبة أخرى.

ومن جهة أخرى فهذه المذاهب لم تكن متسامحة مع المتصوفين. والسؤال الذي يمكن طرحه هو: ما هي الأسباب؟ وما هي نتائج عدم التسامح على الثقافة الجزائرية؟

5 – مكانة الحياة الروحية الصوفية في الثقافة الجزائرية

يُعدُّ الفكر الجزائري في بعده الروحي–الصوفي أحد مضامين الثقافة الجزائرية؛ ومن ثمّ أحد مشكلات الحضارة العربية–الإسلامية والحضارة الإنسانية معا. وهذا بفعل مساهمة شخصيات كثيرة من أبي مدين شعيب إلى شيوخ الطرق الصوفية الآخرين وإلى الأمير عبد القادر وغيرهم في وقتنا الحاضر.

ويمكن أن يؤرخ لبدايات الميل إلى الحياة الروحية الصوفية بأعمال البهلول بن راشد المتوفى عام 182 هـ /798م الذي كان أحد طلاب العلم حين رحل إلى المشرق من بلاد المغرب (تونس) وعاد إليها[7].

ولسنا بصدد الحديث عن مصدر التصوف بإسهاب فهو من جانب أو من آخر يُعدّ مزيجا من ثقافات متعددة: يونانية وفارسية وهندية ومسيحية وغيرها. وقد وجد في البلاد الإسلامية وفي أذهان المسلمين الأرض الخصبة فانتشر بعمق واستمر فضاء تاريخيا وواقعا ملموسا في الثقافة العربية الإسلامية بعامة. وفي الثقافة الجزائرية بخاصة. الأمر الذي يجعلنا نميل إلى قناعة وهي أن التصوف حياة روحية لا بدّ وأن تتعايش مع قواعد النفس الطبيعية وعبر العصور بغض النظر عن مواطن الأجناس وفترات وجودهم ومستوى تفكيرهم. وعلى هذا الأساس ومن الناحية الأنثروبولوجية الثقافية يمكن القول أن المجتمع الجزائري استمر طيلة قرون في مستوى فكري روحي متقارب رغم أنه عرف تغيرات سياسية واجتماعية .

وممارسات التصوف الأولى في البلاد الإسلامية بدأت مع إبراهيم بن أدهم 162 هـ وأبو داوود الطائي 165 هـ ورابعة العدوية 185 هـ وغيرهم. وكانت الممارسات تصوفا زهدا ثم تطورت لتغوص في الروحانيات بدءا بالقرن الثالث الهجري وعن طريق ذي النون المصري 245 هـ الذي يعدّ واضع أسس علم التصوف. ثم طورها بعده الجنيد البغدادي 297هـ. وتعد أعماله هو الفتيل الذي أشعل النار أكثر بين المتصوفة والفقهاء السنيين وأدت إلى مقتل الحلاج عام 309هـ. وانتشر التصوف أكثر بظهور أقطاب أمثال عبد القادر الجيلالي 562 هـ /1167م وانتشر في بلاد المغرب العربي عن طريق شيوخ رحمهم الله ومنهم أبو مدين شعيب.

ونتج عن الصراع بين الفقهاء والمتصوفين سقوط أنظمة حكم وصعود أخرى. من ذلك ما حدث لدولة المرابطين (488–530 هـ) المتشددين الذين أحرقوا كتاب إحياء علوم الدين للغزالي عملا برأي بعض الفقهاء فعمل المهدي بن تومرت على إسقاط حكم المرابطين وإقامة دولة الموحدين التي بها

انتعش التصوف وصار خطاب القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي في بلاد المغرب العربي. مثلما صار فكر الإمام الغزالي المرجع الأقوى لرجال الحكم في بلاد المغرب.

وبداية من القرن الثامن الهجري يمكن القول إن التصوف في بلاد كثيرة جنح إلى الدجل والشعوذة، فبعد أن كان التصوف نزعة تنأى بالإنسان عن ملذات الدنيا صار خرافة ومكسب رزق. إلى درجة أن صارت كلمة العقيدة تنسب إلى الشيخ فيقال: عقيدة الشيخ. وقد صدق الهجويري حين قسم طبقات الصوفية إلى صوفي ومتصوف ومستصوف حيث قال: " فالمستصوف عند الصوفية كالذباب، وعند غيرهم كالذئاب". ومن ثم "فالصوفي هو صاحب الوصول، والمتصوف هو صاحب الأصول والمستصوف هو صاحب الفضول"[8].

لأنه وفقا لقواعد النفس والروح والعقل فإن الإدراك للأمور يتفاوت من شخص إلى آخر، يتفاوت من قاعدة العقل إلى قاعدة الروح. وعند العجز العقلي في معرفة الحقيقة الإلهية تكون النفس والروح الأقرب إلى إدراك هذه الحقيقة عن الطريق المجاهدة والكشف والتجلي، والوصول إلى هذا المستوى لا يكون من المستصوف.

ومن باب التقويم يمكن القول أن هذا اللون من الفكر الروحي الصوفي انطلق في بداية عهده إلى المناجاة للوقاية من عذاب الدنيا والآخرة. لكنه بداية من القرن الثالث الهجري تطور إلى المناجاة وطلب المعرفة خاصة على يد ذي النون المصري المتوفى عام 245 هـ. وتطور إلى المناجاة والحلول والفناء أي حلول الله في مخلوقاته مثلما كان الحال عند الحلاج. أو وحدة الوجود القائمة مثلما كان الأمر عند ابن عربي المتوفى عام 638 هـ. فتكون هذه المناحي الروحية قد خالفت المناحي الفلسفية في هذا الجانب حيث سلكت هذه الأخيرة طريق التأمل العقلي لبناء قواعد فكرية يطبقها المتأمل عمليا. في حين أن المنحى الروحي الصوفي انطلق من العمل التعبدي القائم على الذكر والزهد

والمجاهدة إلى التأمل الباطني. بينما الفكر الروحي الفقهي انطلق من نص جاهز قائم على التوحيد لا إله إلا الله.

وقد انتشر هذا اللون من الفكر الروحي الصوفي في الجزائر في الريف والمدينة. فمدينة بجاية[9] مثلا عرفت حركة فكرية روحية عميقة بإسهامات كبار المتصوفين الذين سكنوا فيها أو الذين مروا منها أمثال ابن عربي الذي زارها أواخر القرن السادس الهجري. وهاجر إليها أبو مدين شعيب بن حسين الأنصاري الأندلسي من ناحية إشبيليا[10] وعاش فيها ثم انتقل إلى تلمسان حيث توفي عام 594 هـ ودفن في العباد. وقد تتلمذ أبو مدين على الشيخ أبي يعزى بن عبد الرحمان المتوفى عام 572 هـ . ومن أشهر الشيوخ الذين تخرجوا على يد أبي مدين شعيب أحمد أبو القاسم التادلي الذي بلغت شهرته أقطاب الدنيا.ومن أشهر تلامذة أبي مدين شعيب محي الدين بن عربي وهو شيخ التصوف النظري. وعبد السلام بن مشيش شيخ الإمام الشاذلي شيخ التصوف السني العملي ومن الشيوخ الذين زاروا بجاية كان كل من أبي الحسن علي بن أحمد الحرالي التيجيني وأبو محمد عبد الحق بن سبعين المرسي. ونذكر من أشعار التيجني

ما لنا منا سوى الحال عدم ... وليا رينا وجود وقـــدم

كلما رمت بذاتي وصلـــة ... صار لي العقل مع العلم جلم[11]

كانت معظم المدن والأرياف الجزائرية موئل كثير من الشيوخ وهو ما يفسر كثرة المؤسسات الثقافية كالزوايا. فمدينة في الجزائر مثلا وجدت بها ما يقارب 100 زاوية قبيل الاحتلال الفرنسي لها[12]. وسواء في المدينة أم في الريف فإن الطرقية[13] التي زاد عددها عن 16 طريقة. وأن 13 طريقة كلها شاذلية[14] فإنها كانت تحتل في المجتمع الجزائري مكانة هامة، إذ أن لشيخ الطريقة" نفوذا أوسع حتى من نفوذ شيخ القبيلة. و أوسع حتى من نفوذ الداي والباي.

وكان المرابطون الطرقيون نعمة على المجتمع بإشرافهم على المؤسسات الثقافية التعليمية وفض النزاعات، وفرض التسامح بين أفراد القبائل. وكانوا أيضا نقمة على

المجتمع بما أحدثوه من صراعات محلية فيما بينهم ونشرهم للخرافة والشعوذة. حيث اتخذوا من الزاوية عاصمة ثقافية وسياسية وإدارية لهم ولنظامهم.

وكانت القبائل تتسابق إلى أن يكون لها مرابط لتدعم شوكتها، وكان المرابط يقيم في الريف يحتمي بالقبيلة وتحتمي به القبيلة. "وقد ظهرت الطرق الصوفية في الجزائر في بداية القرن 16"[15]، وقبل هذا التاريخ كان " التصوف" فرديا. وبانتشار الطرق ضعف نشاط المرابطين بل تم دمجهم في الطريقة نتيجة اهتمام القبائل بالطرقيين بدل اهتمامهم بالمرابطين. وهذا ما يفسر موقف العلماء الدينيين الذين ناصبوا الطريقة والطرقية العداء، مثلما يفسر فشلهم في فرض أنفسهم على الطرقيين خاصة أثناء الحكم العثماني. ومن ثم لم ينجح العثمانيون ولا العلماء في الصمود أمام الطرقيين. فالطرقية وحدت أكثرية المجتمع الجزائري روحيا وهو ما عجزت عنه السلطة العثمانية مثلما كانت هذه الطرقية عامل تسامح كبير بين أفراد القبائل.

وفي مسار هذا الصراع بين الفقهاء العلماء والمتصوفة الطرقيين كان يدير النظام السياسي حكام جهلة ليست لهم صلة قوية بعمق الحضارة الإسلامية خاصة في بعدها الديني والثقافي واللغوي فضعفت الدولة الإسلامية. الأمر الذي أدى إلى ظهور العلماء كفئة متميزة ليسدوا الفراغ كمستشارين ومشرعين ومفسرين. وكأن شعار العلماء صار أنهم هم "حماة الدين" و"مصابيح الظلام". مثلما ظهر الطرقيون على الساحة الاجتماعية بقوة بينما لم يكن الأمر هكذا حين كان الحكام علماء والعلماء حكاما.

ولعل كون بعض الحكام العثمانيين في الجزائر كانوا في نظر البعض غرباء عن الثقافة العربية وعن تاريخ الحضارة العربية-الإسلامية هو الذي جعلهم، كولاة وسلاطين، يستأثرون بشؤون الحكم من سياسة واقتصاد وجيش وإدارة، تاركين القضايا

الأخرى التي لها مساس مباشر بالدين في أيدي فئة أخرى هي فئة العلماء وأنصاف العلماء، والقضايا الأخرى التي لها مساس بالحياة الاجتماعية في أيدي شيوخ القبائل وشيوخ الطرق"[16].

وبهذا تكون الطرقية محور الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر . وعن طريقها كان اهتمام الجزائريين بالمساجد وبالمدارس والزوايا وبالكتب والمكتبات والوقف والرحلات العلمية إلى خارج الجزائر. وكان لشيوخ الطرق من الولاء الشعبي ما يضاهي بل يفوق الولاء العام لنظام الحكم القائم. وهم الذين كانوا الأكثر تسامحا من غيرهم. وكان تسامحهم الروحي في هذه المرحلة يعني في غالبه الابتعاد عن ملذات الدنيا وعن ممارسة الصنائع والإبداع العلمي والمعارف العقلية، ولعل هذا ما يفسر غياب المشاريع الصناعية والمنشآت العمرانية التي تتماشى ومتطلبات تلك المرحلة. وعلى أساسه يكون هذا الفكر ساهم في إسكان الواقع بميله إلى الغيب وتسليمه بالقضاء والقدر. وبهذا يكون المتصوفة سدوا الطريق أمام العلماء ووجهوا حياة الشعوب المسلمة. وباستمرار الحياة على هذا المنوال سهل على الغزو الخارجي أن يحقق جزءا كبيرا من مشاريعه باحتلاله الجزائر مثلا.

مثلما حقق الاستعمار الغربي جزءا مهما من مشروعه في آسيا بمساعدة بعض الفرق الدينية التي تسامحت وتحاورت بل خضعت في النهاية للاستعمار الغربي ونذكر منها القاديانية[17] التي اجتهدت في أن يكون ركن الجهاد بالرغبة والاقتناع. ونتيجة لمواقفها انشقت القاديانية على نفسها وتفرعت إلى الأحمدية بزعامة خواجة كمال الدين. وإلى البهائية[18] التي تسامحت إلى درجة أن اعتبرت نفسها موحدة الديانات مثلما قالت بصحة جميع الأديان.

وعرض وجه الشبه بين ما حدث في الشرق وفي المغرب -من تسهيل مهمة الاستعمار- هو من باب فعل الأوروبيين ورد فعل المسلمين؛ مع مراعاة الفارق بين الطرقيين في الجزائر مثلا وبين القاديانييبن والبهائيين[19].

وفي رأيي وإن كان ولا بد من عبرة تفيدنا من دراسة التاريخ هي أن الالتزام بالدولة الوطنية الجزائرية الدستورية التي تتبنى الثوابت الآتية: الإسلام واللغة العربية والسيادة الترابية والأمازيغية. فالالتزام بهذا يؤدي إلى تسامح وحوار؛ وتأثر وتأثير يكون وسيلة لا غاية الذي به يكون البناء الحقيقي. أقول هذا وأنا بريء من أي إسقاط أو تأويل سياسي أو ديني. لأن غرضنا هو إبراز الجانب التاريخي المشكل للثقافة الروحية الجزائرية. ولأن قناعتنا هي أن مفهوم التسامح يجب ألا يخرج عن تقبل الآخر في تعايش سلمي ندي من دون مصادرة.

6 – موقع كل من الأمير عبد القادر وابن باديس في الحياة الروحية بالجزائر

موقع كل من الأمير عبد القادر والشيخ عبد الحميد بن باديس محكوم إلى ثقافة كل منهما فهما يشتركان في تأصيل ديني إسلامي قائم على الشريعة الإسلامية. وإن كان الأمير عبد القادر مال أكثر إلى الحياة الروحية الصوفية ومن ثم إلى التسامح الذي نلمسه في سلوكياته تجاه شرائح المجتمع الجزائري وحتى مع غير الجزائريين انطلاقا من القيم الإنسانية والروحية القائمة على التعامل الخير بين كل الناس[20]. لأنه على ما يبدو أن قناعة الأمير كانت مستمدة أيضا من القيم الفلسفية القائلة بأن الإنسانية تدل على المعنى الكلي المجرد الذي تقوم به ماهية الإنسان. قال أبو حيان التوحيدي "الإنسانية أفق والإنسان متحرك إلى أفقه بالطبع". ومن الممكن أن يكون الأمير قد اقتنع بالبعد الفلسفي القائل بأن للإنسانية ثلاثة معان: الأول: هو المعنى الكلي الدال على الخصائص المشتركة بين جميع الناس في مختلف بقاع الأرض. والثاني هو مجموع خصائص الجنس البشري التي تميزه عن غيره من الأنواع الأخرى. وعلى هذا الأساس يقوم الشرط في تطوير الإنسانية على ضرورة تغلب الجانب الإنساني في الفرد أو في الجماعة على الجانب الحيواني فيه[21]. والمعنى الثالث هو حول الإنسان الكامل الذي هو فوق كل الناس كالنبي والرسول ﷺ. وعلى أساسها تقرب الأمير عبد القادر إلى طرق صوفية وفي مقدمتها الرحمانية حيث كانت اتصالات

بينه وبين شيوخها[22]. وإن لهذا شواهد كثيرة نلمسها في مؤلفاته خاصة كتاب المواقف. فهو من الذين وهبوا حياتهم لله خدمة للإنسانية بالتسامح والجدال بالتي هي أحسن.

ويمكن ملامسة بعض العوامل التي جعلت الأمير عبد القادر متسامحا مثلما يتجلى في نصرته للمسيحيين مثلا في كونه صاحب ثقافة روحية صوفية مستمدة من آراء ابن عربي ومنها أن مخلوقات الله مظاهر وتجليات للحقيقة. أي نظرية وحدة الوجود.بجانب ما كان عليه الأمير عبد القادر من تخلق لأسماء الله الحسنى مثل: الرحمن، الرحيم، السلام...

ويتأكد هذا حين نقرأ للأمير قوله:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن دينه إلى ديني دان

لقد صار قلبي قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ودير برهان

أديت بدين الحب أني توجهت فالحب ديني وإيماني

في حين كان ابن باديس ميالا إلى الفقه أكثر؛ فموقفه لا يخرج عن موقف الفقهاء الذين ناصبوا الطرقيين المتصوفين العداء. زيادة على هذا فموقف ابن باديس كان أكثر ضد الطرقيين أشباه المتصوفين (المستصوفين) الذين نشروا الخرافة وكانوا من جهتهم ضد ابن باديس وضد العلماء الفقهاء.

وقد انتقد شيوخ وجمعية العلماء المسلمين وعلى رأسهم الشيخ الإبراهيمي الصوفية وألفاظها وممارساتها ولم يتسامحوا إطلاقا معها واقعا وتاريخا وحجتهم في ذلك أن ظهورها في بغداد إنما كان لهدف سياسي. وكان المتصوفة يعتبرون لباس الخرقة ومناولة السبحة وأخذ العهد وغيرها هي من صفات الممارسة الروحية المبدئية. فلباس الخرقة يعني عندهم دلالة على لباس التقوى باطنا وظاهرا ووصال حب بين المريد وبين شيخه.

وقد ثار شيوخ جمعية العلماء على هذه البدع ونفوا أن تكون من الإسلام بصلة ومنهم الشيخ العربي التبسي. مثلما سبق وأن نفى ابن تيمية أن تكون صلة بين ما يدعو الإسلام إليه وما جاء به

هؤلاء من لباس الخرقة. وقد قال ابن باديس في هذا الأمر "بقدر ما كان تمسك الأمة بأسباب العلم كان رفضها للجمود والخمود والخرافات والأوضاع الطرقية المتحدرة للفناء والزوال حتى أصبح القطر الجزائري كله يكاد لا تخلو بيت من بيوته ممن يدعو إلى الإصلاح وينكر الجمود والخرافة ومظاهر الشرك القولي والعملي وأصبحت البدع والضلالات تجد في عامة الناس من يقاومها وينتصر عليها"[23]

السؤال المطروح هو هل كان موقف ابن باديس غير المتسامح مع الطرقيين والمتسامح والمتحاور مع الشعوب الأخرى يعود إلى وازع ديني؟ أم لطبعه ومزاجه؟ أم يعود للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت تعيشها الجزائر؟ وإني أميل إلى رأي وهو إن موقف ابن باديس من الطرقيين كان موقفا سياسيا واجتماعيا أكثر مما هو موقف ديني؛ بحكم علاقة البعض من هؤلاء بالفرنسيين وبالمجتمع الجزائري على أساس ابن باديس هم يحارب الطرقية في أصولها الأولى وإنما حارب مظاهر الانحراف التي طرأت عليها.

والخلاصة أنه يتبين مما سبق أن الثقافة الجزائرية تشكلت تاريخيا بتفاعل حضارات وصراعات مذهبية وروحية كان بعضها متسامحا وبعض الآخر غير ذلك. وتشكلت هذه الثقافة من إسهامات العلماء الرحالة من وإلى الجزائر ومن أمهات الكتب المرجعية التي كان ينتقيها الجزائريون. وكان للطرقية حضور قوي في الحياة الثقافية الجزائرية؛ إذ أنها كانت نعمة بتوجيهها للحياة بمختلف صورها وبفرضها للتسامح بين أهم التشكيلات السكانية. ونقمة بنشرها للخرافة والشعوذة. ومع ذلك تبقى هذه الطرقية هي التي حافظت على المقومات العربية الإسلامية في الجزائر.

الإحالات

[1]- يراجع: أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص-ص. 26-28

[2]-كان أهم الفقهاء من المشرق الوفد المتكون من 10 برئاسة إسماعيل بن أبي المهاجر الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز حوالي سنة 100 هـ / 778 م إلى شمال إفريقيا. للمزيد من المعلومات يراجع: عبد المجيد بن حمدة، المدارس الكلامية بإفريقية، مطبعة دار العرب، ط. 1، تونس 1986،ص. 33 وما بعدها

[3]- وإن كان يشهد للحارث بن أسد المحاسبي المتوفى عام 243 هـ /936م بأنه أول من أصّلا للمذهب الكلامي المستند على القرآن الكريم والحديث الشريف.

[4]- ومنهم الأباضية نسبة إلى عبد الله بن أباض وإن كان هذا المذهب انتشر على يد سلمة بن سعد.

[5]- عبد المجيد بن حمدة. المدارس الكلامية بإفريقية. مطبعة دار العرب. ط. 1، تونس 1986، ص. 70

[6]- عبد المجيد بن حمدة. المدارس الكلامية بإفريقية. ص. 31

[7]- يقول عبد المجيد بن حمدة "وللبهلول دور كبير في المدرسة السنية، إذ نحا بها منحى التصوف المبكر، ...فكان الناس يتبركون بدعائه" . يراجع: المدارس الكلامية بإفريقية، ص. 37

[8] - الهجويري. كشف المحجوب. ترجمة وتعليق إسعاد عبد الهادي قنديل، ج. 1، 2،دار النهضة العربية، بيروت 1980 ص. 231 وللمزيد من المعلومات عن الهجويري يراجع ما كتبناه بعنوان: "كشف المحجوب لأبي الحسن علي بن عثمان الهجويري من أواخر القرن الرابع الهجري إلى حوالي 465 هـ"في مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد 8 منشورات جامعة الأمير عبد القادر. أفريل 2001

[9]- بعد أن أعاد الحماديون بناء مدينة بجاية عام 460 هـ عرفت ازدهارا كبيرا خاصة عهد المنصور الحمادي المتوفى عام 498 هـ ثم استولى الحفصيون عليها عام 629 هـ ثم المرينيون عام 1347م

[10]- هاجر أبو مدين شعيب من الأندلس واستقر في فاس وتردد على مجالس الذكر والفقه لعلماء أكفاء ومنهم أبي الحسين علي بن خلف المتوفى عام 561هـ. ثم رحل إلى مكة وتزود بالعلم الديني والمعرفة الربانية وسلوكيات الصوفية من شيوخ كبار أمثال عبد القادر الجيلاني. للمزيد من المعلومات يراجع: عنوان الدراية، ص. 55 وما بعدها.

[11]- أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني. عنوان الدراية. ص. 47

[12]- يراجع ما كتبناه بعنوان: "وثيقة نادرة عن المؤسسات الثقافية بمدينة قسنطينة". المجلة التاريخية المغاربية. العدد 87 ـ 88 تونس، 1997، ص ـ ص. 625 ـ 639.

[13]- لمزيد من المعلومات يراجع ما كتبناه بعنوان: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث. مطبوعات جامعة منتوري ـ قسنطينة، جانفي 2000، ص-ص. 132-134

14 - سعد الله أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي. ج. 1. ش. و. ن. ت. الجزائر. ص. 466. وذهب أبو القاسم إلى رأي هو أن كل الطرق مستوردة الأفكار من البلاد الإسلامية. سواء من المغرب أم من المشرق. ولا نكاد نجد طريقة أصيلة نابعة من ظروف سياسية أو دينية محلية. المرجع نفسه. ص-ص. 532-533.

ينظر كذلك: Rinn (L.), Marabouts et khouans, Jourdan, Alger, 1884

15 - مسعود العيد. " المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني"، سيرتا. العدد 10. مجلة يصدرها معهد العلوم الاجتماعية. جامعة قسنطينة. الجزائر 1988، ص. 10

[16] - أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. ج1. دار الغرب الإسلامي. بيروت 1998، ص. 388.

[17]- نسبة إلى ميرزا غلام أحمد القادياني (1908) الذي ادّعى المحمدية وقال بحلول محمد وعيسى في شخصه.

[18]- نسبة إلى بهاء الله وهو ميرزا حسين علي نوري في منطقة قزوين. وتطورت عن البابية والبهائية فرق هي: 1-البابية الخلص أتباع الباب وهو علي محمد الشيرازي الشيعي2-البابية البهائية أتباع بهاء الدين. 3 ميرزا حسين علي نوري الشيعي.4 - البابية الأزلية أتباع صبح أزل الذي كان في قبرص. 5- البابية العباسية أتباع عباس أفندي الذي كان يقيم في بيروت.

[19]- سبق وأن حارب القاديانيون الشيخ محمد الحافظ التيجاني في مصر وهو من اتباع الطريقة التيجانية الجزائرية الأصل والشيخ محمد الخضر الحسين شيخ الأزهر الذي كان منتميا إلى الطريقة الخلواتية المعروفة في الجزائر بالرحمانية.

[20]- Petit Larousse, Larousse, Paris 1980, p. 464.

[21] -جميل صليبا. المعجم الفلسفي. ج2. الشركة العالمية للكتاب، بيروت 1982 ص-ص. 158-159.

[22]- لمزيد من الاطلاع يراجع: المأمون القاسمي الحسني. "الطريقة الرحمانية". الحياة الروحية للأمير عبد القادر. الأكاديمية الجامعية لمدينة الجزائر. الجزائر 1998، ص-ص. 59-76

[23]- ابن باديس حياته وآثاره، جمع ودراسة عمار الطالبي، ج. 4. الشركة الجزائرية لصاحبها الحاج عبد القادر بوداود. الجزائر 1997 ص. 359 ولمزيد من المعلومات يراجع: أنيسة زغدود. جهود جمعية العلماء المسلمين في مقاومة إنحرافات الطرقية (1931-156)، ماجستير. كلية أصول الدين والحضارة الإسلامية. قسنطينة 1999-2000